البنية العاملية في رواية : البطاقة السحرية
لـ "محمد ساري"

الأستاذة: ليلى قاسحي
– جامعة الجزائر2 –

تعتبر الشخصية أساسا مهما من أسس العمل الأدبي، والروائي على وجه التخصيص، إذ يصعب علينا تصوّر أحداث قصة أو رواية دون شخصيات تقوم بتلك الأحداث، وهذا ما يؤكده الناقد الفرنسي رولان بارث Roland Barthes، حيث يقول :"لا يمكننا أن نقول أن ثمة قصة واحدة في العالم دون شخصيات".[1]

وانطلاقا مما سبق يمكننا فهم حرص النقد الأدبي، واهتمامه البالغ لمكون الشخصية الروائية لما تحتله من موقع مهم في كل الأعمال الإبداعية حيث يعتبرها "فليب هامون" "Phillipe Hamon" من نقاط الارتكاز التقليدية للنقد قديمه وحديثه، وللنظريات الأدبية.[2]

ومن هنا تباينت البحوث التطبيقية التي عالجت الشخصية الروائية، وتنوعت نظريات الباحثين والنقاد، وعرفت الحركة النقدية في هذا المجال تطورا ملموسا خاصة بعد ظهور حركة الشكلانيين الروس (1915م – 1930م) دون أن ننسى المجهودات الجبارة التي قدّمها لفيف من النقاد لصقل مختلف النظريات أمثال :رولان بارث، يوري لوتمان، فيليب هامون... ولكل واحد منهم رأيه الخاص، وطريقة تعامل مميزة مع هذا المكوّن الفعّال.

ويعتبر حسن بحراوي أن الشخصية هي "العنصر الوحيد الذي تتقاطع عنده كافة العناصر الشكلية الأخرى بما فيها الإحداثيات الزمانية والمكانية الضرورية لنمو الخطاب الروائي".[3]

وتعتبر نظرية "فيليب هامون" في عنصر الشخصية الروائية من النظريات المهمة التي اكتسحت البحوث النقدية عموما، والدراسات العربية على وجه التحديد، التي لا تزال في حاجة ماسة إلى مصادر جوهرية لتطوير الخطابات الأدبية، فقد ركز "هامون" في دراسته للشخصية على الناحية الوظيفية على مدار المتن الروائي حيث يقول :"تشمل الشخصية على المستوى الحكائي وظيفة البناء، يقوم النص بتشييده، أكثر ممّا هي معيار مفروض من خارج النص".[4]

ومن خلال هذا القول نستنتج أن الشخصية علامة مهمة في خضّم أحداث النص الروائي، حيث تتحقق معاينتها من خلال علاقتها بجميع المكونات السردية الأخرى، ولا يتأكد حضورها إلاّ بعد قراءتها وإدراك أدوارها المسندة إليها، والوظائف التي تقوم بها، وعلاقة التأثر والتأثير بين الشخصيات الأخرى داخل النسيج الروائي. وكان لـ"فلاديمير بروب" "Vladimir propp" دور كبير في وضع نموذج أولي وقاعدي لتكوين نظرية سميائية سردية، من خلال كتابة "مورفو لوجيا الحكاية"، فقد حدد فيه العناصر الأساسية المكونة للحكاية : Histoire، وهي ما اصطلح على تسميته "الفعل : Action". وأطلق عليه بروب مصطلح "وظيفة" "Fonction"، فقد اهتم بوظائف الشخصيات، وأهمل جميع تفاصيل مظاهرها وصفاتها، فقد ركّز على ما تفعله الشخصية، وقد حصرت هذه الوظائف في 31 وظيفة.

وقد أفاد غريماس "Grimas" من أبحاث "بروب" "propp" فحاولا معا تحديد هوية الشخصية في الحكي بشكل عام خلال مجموع أفعالها دون غض النظر عن العلاقة القائمة بينها وبين الشخصيات الأخرى.

ويعتبر النموذج العاملي "Modèle actantiel" الذي وضعه غريماس من القواعد الأساسية والضرورية لوصف الشخصيات وترتيبها في الحكاية، وقد ميّز بين قطبين أساسين هما :

1. **العوامل Actants** : فواعل تقوم بإنجاز أفعالها، حيث تتخذ فيه الشخصية مفهوما شموليا مجردا تهتم بالأدوار، ولا تهتم بالذوات المنجزة لها.
2. **الممثلون Acteurs** : شخصيات تقوم بدورها في الحكي تشارك مع غيرها في تحديد دور عاملي واحد، أو عدة ادوار عاملية.[5]

ويرتكز النموذج العاملي على أفعال الشخصيات، وينتظم داخل المسار السردي وفق نسق قائم على الثنائيات أو الأزواج:

الفاعل _____ الموضوع (محور الرغبة) axe de désir

المساعد_____ المعارض (محور القدرة) Axe de pouvoir

المرسل_____المرسل إليه (محور الاتصال) Axe de communication

ويمكن تمثيل هذه البنية العاملية بالترسيمة السردية : "Schéma narratif" التالية :

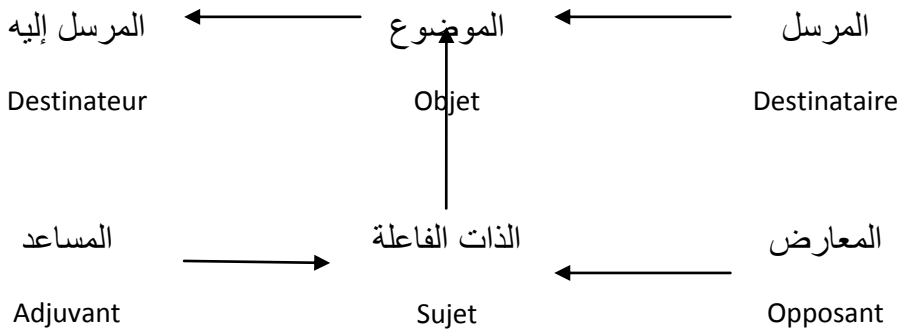

ومن خلال هذه الترسيمة السردية نجد أن الذات الفاعله ترغب في الاتصال بموضوع القيمة objet de valeur، الذي يشكل قاعديا الصراع بين ذات الفعل (الفاعل)، والذات المضادة (المعارض)، المتموقعتين داخل الحكي حيث يهيمن أحدهما في بداية السرد، بينما يهيمن الثاني في نهايته لكنهما يلتقيان في لحظة ما، أين تتم المواجهة بين الذوات في شكل سجالي أو تصالحي".[6]

كما تجدر الإشارة إلى أن الذات الفاعلة لغرض معين واتصالها بموضوع القيمة ينبغي أن يمر بأربعة مراحل أساسية :

1. مرحلة التحفيز (motivation)
2. توفر الكفاءة (compétence)
3. مرحلة الإنجاز(performance)
4. الحكم على الإنجاز (sanction)

وبعد هذه الوقفة النظرية البسيطة سنسعى إلى الاقتراب من المسار السردي Parcours Narratif واستنباط النية العاملية في رواية البطاقة السحرية[7] لمحمد ساري. واستخراج البرامج السردية Programme Narratifs، باعتبارها مقطع منظم، مكوّن من تعاقب المجالات والتحولات، ينشأ عنه تحوّل رئيسي من الاتصال Conjonction إلى الانفصال Diconjonction [8]، والبرنامج السردي مرتبط حدوثه بتحقيق مرحلة الإنجاز التي يتم فيها التحول [9]، لكن قبل ذلك سنسعى إلى تقديم ملخص وجيز عن الرواية.

ملخص رواية البطاقة السحرية لمحمد ساري :

تناقش الرواية قضية وطنية مهمة، وقد تناولها الروائي بطريقة روائية جريئة، وعبّر عن الطابع العام لهواجس الرواية الجزائرية المتمثل في الثورة التحريرية، وعمّد فيها إلى كتابة تاريخ الجزائر المعاصر من خلال العودة إلى فترات تاريخية عرفتها الجزائر إبان الثورة التحريرية، تجري أحداث الرواية في قرية "عين الفكرون"، بطلها "مصطفى عمروش"، الذي يتصف بمجموعة من الصفات الكريمة: كالشرف والنبل والإخلاص للوطن، والتنافي في العمل، والوفاء للثورة والثوار، يشغل منصب رئيس قسمة المجاهدين والشهداء، وفي المقابل نجد شخصية "أحمد تكوش" الملقب بالسارجان، انتهازي وصولي، يتميز بصفات الجشع والاستغلال، والعمل لحساب العدو، وضد مصالح الثورة، يملك من المال الكثير، ومن الجاه والسلطان ما يجعله أثرى وأشهر شخص في القرية، يمثل السارجان قطب خونة الثورة، وعملاء فرنسا، حيث كان مكلّف بالوشاية بالمجاهدين، وكشف مخططاتهم، وكان يرفض بيع المواد الغذائية للمقاومين، ولكن بعد الاستقلال يسعى إلى تحريف هذه الحقائق وتزييفها حيث أصبح يقرّ بأنه خدم الثورة، وساعد الثوار لكن مصطفى عمروش، كان يعرف حقيقة هذا المراوغ جيدا.

أراد أحمد تكوش أو "السرجان" الحصول على بطاقة المجاهد (بطاقة الانخراط في الثورة التحريرية)، هذه البطاقة السحرية التي ستمنحه الكثير من الامتيازات، كالمجد والشرف حتى يصبح أكثر قدرا وشأنا، حيث يسعى على مدار النص كلّه جاهدا للحصول عليها، متبعا في ذلك كل الوسائل والوسائط، لكن العقبة الوحيدة لتحقيق الغاية هي "مصطفى عمروش" الذي يرفض رفضا قاطعا هذه المهزلة –كما يسميها– خائن ببطاقة مجاهد، هذا ما لم يقبل به رغم كل المحاولات الترغيبية والترهيبية، لكن يظل مصطفى عمروش متمسكا بموقفه، ويبقى الصراع قائما بين الطرفين إلى أن تنتهي الرواية نهاية مأساوية، حيث يقوم مصطفى بقتل السارجان أمام مرأى من الناس ومسمعهم، ومع سابق الإصرار والترصد ويزج مصطفى في السجن.

تحديد البنية العاملية في الرواية :

يتأسس التركيب العاملي في البطاقة السحرية على عنصر الصراع القائم بين الأطراف الفاعلة في الأحداث، ولا يتسنى لنا فهم هذا الصراع إلا من خلال الأفعال التي تنجزها الشخصيات، والتي بدورها تمكننا من تحديد أوضاع القوى الفاعلة في النص وإدراك نمطية العلاقة الموجودة بين مختلف الأطراف المتفاعلة فيه من خلال استنباط البرامج السردية Programmes narratifs التي تقوم بها الشخصيات رغبة منها في التحول من وضع إلى آخر.

فبموجب هذا التحول تدرك استراتيجيات القوى المتصارعة المجسدة عن طريق البرامج السردية الرئيسية والملحقة، حيث تقودنا هذه العملية التحليلية إلى فهم الرهانات السميائية في الرواية، وضبط أدوارها الدلالية.

يقوم الفصل الأول: في رواية "البطاقة السحرية" على برنامج سردي للذات الفاعلة Sujet فيه السرجان، الذي يسعى إلى تحقيق مشروع الاتصال بموضوع القيمة Objet de valeur. المتمثل في الحصول على بطاقة الانخراط في جيش التحرير

الوطني، وللسرجان مجموعة أغراض thèmes تخوله للاتصال بموضوع القيمة (المال، المكانة الاجتماعية، الأصدقاء، الوساطة) فالرغبة موجودة، ومعرفة الفعل قائمة، لكن الدخول في وصلة "Conjonction". مع الموضوع يولد صراعا مع الذات الفاعلة الضديد" (Anti sujet) متمثلة في "مصطفى عمروش"، الذي يرفض توقيع البطاقة ومنحها له. ويمكن فهم هذه البنية العاملية، من خلال الترسيمة السردية التالية:

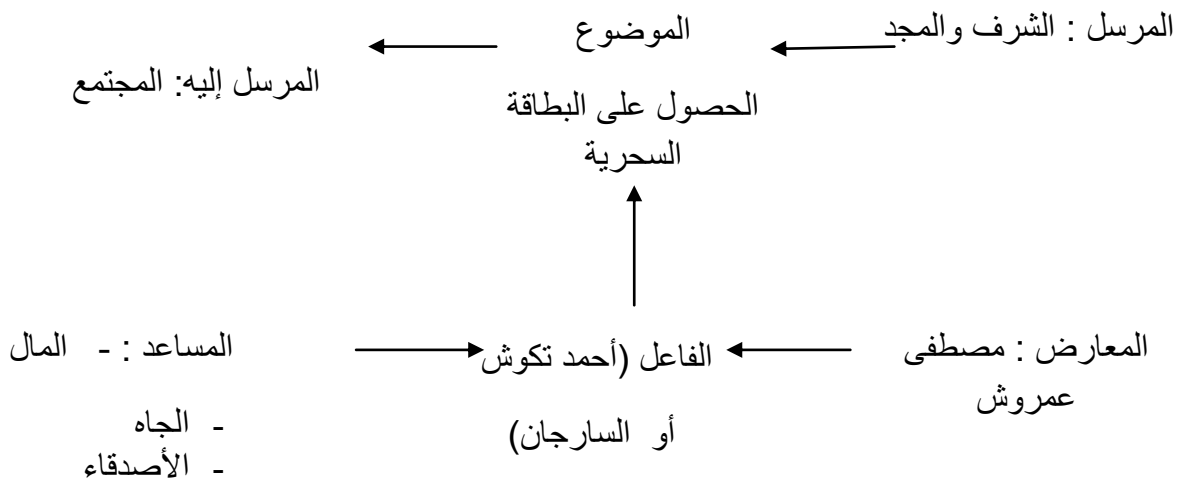

رفض المعارض (مصطفى عمروش) تحقيق رغبة الفاعل، يؤدي إلى فشل البرنامج وتأجيل تحقيقه وانجازه، مما يؤدي بالفاعل (السارجان) إلى إنجاز برنامج سردي ملحق programme narratif annexe أين يصبح المعارض أو الذات الفاعلة الضديد (مصطفى عمروش) موضوعا للقيمة، حيث يسعى "السارجان" إلى استمالته ومحاولة إقناعه بأنه جدير بالحصول على البطاقة، حيث يسعى في ملفوظ الفعل Enoncé du faire إلى الانتقال إلى مرحلة الإنجاز، فيأخذ المسار السردي طريقه نحو التحول Transformation ووضع المخطط التالي :

1. **اليوم الأول**: استمالة مصطفى عمروش بالرفق واللين:"ولم يتفطن (مصطفى) إلى كلاصون سيارة متوقفة قرب الرصيف المقابل للشارع ... فتح الباب، وقف السارجان متكئا على سقف السيارة المغبر ونادى بأعلى صوته الجهوري 'يا سي مطصفى، يا سي مصطفى) ... فبادره بالتحية مصطنعا ابتسامة مهادنة، ودعاه إلى جولة قصيرة في سيارته الفخمة، فإنقاد مصطفى عمروش عن غير رغبة ... وطاف حول ذكريات الماضي البعيد، أيام الحر والجوع والتشرّد الجماعي"[10].
2. **اليوم الثاني**: محاولة استبعاده من منصبه، وإقناعه بالتقاعد، والتحول إلى التجارة:"اسمع يا سي مصطفى، لقد تقدمت في العمر، فلماذا لا تفكر في مستقبلك ومستقبل أولادك، فتطلب التقاعد، وتفتح لنفسك محلا تجاريا، يوفر عنك المتاعب وتعيش بقية حياتك سعيدا مستريحا"[11].
3. **اليوم الثالث**: التصريح المباشر بالرغبة في الحصول على البطاقة، وعرض الرشوة:"أحتاج إلى إمضائك كي أحصل على شهادة المشاركة في الثورة"[12] "لا يكلفك الإمضاء شيئا، بل ستربح الكثير معي، فخيري كالبحر ...أنا

مستعد للدفع، أطلب ما تريد وسأحضرها لك في الحين"[13] وكانت ردة فعل مصطفى" قوية حيث "صعق مصطفى عمروش، وكاد يختنق غيظا"[14]. ويمكننا فهم هذه البنية العاملية من خلال الترسيمة السردية التالية :

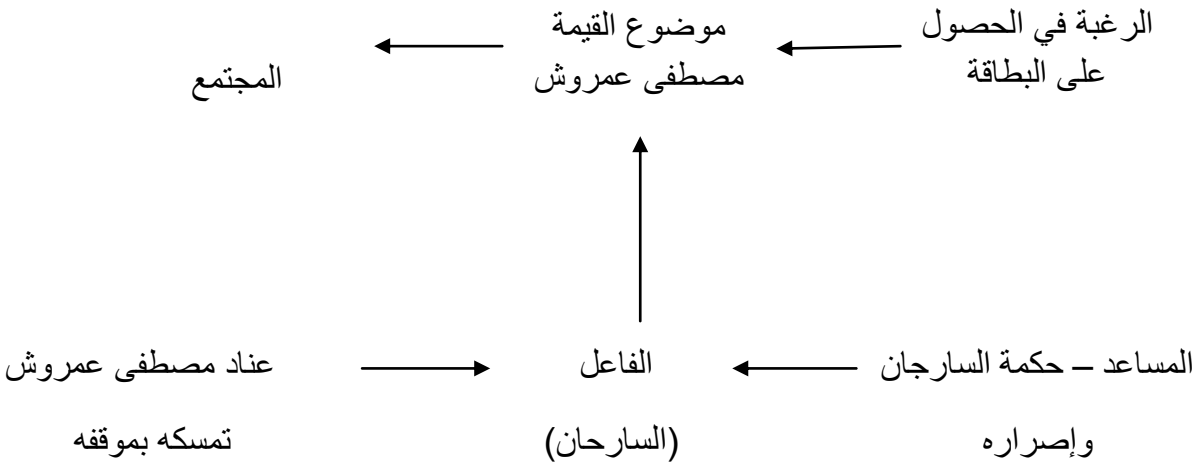

نستنتج ممّا سبق أن البرنامج السردي الملحق فشل هو الآخر مما يؤدي إلى دخول الفاعل في حالة انفصال مع موضوع القيمة، وتقهقر المسار السردي، والعودة إلى نقطة البداية، وانتقال الفاعل من ملفوظ الفعل إلى ملفوظ الحالة، مما يؤدي إلى فشل البرنامج، وشعور الفاعل بالإحباط واليأس وخيبة الأمل. مما يؤدي بالسرجان إلى استعمال وسائل أخرى للتعويض عن نفسه، واسترداد جزءا من عزته ويتضح ذلك من خلال هذا المقطع السردي: "سآخذ البطاقة بالمليح أو القبيح سآخذها رغم أنف مصطفى عمروش، الذي يحسب نفسه المجاهد الوحيد في هذه القرية ... كلنا ساعدنا الثورة، ماذا كان مصطفى هذا؟ حارسا للمغاور ولم يشارك في أية معركة، بل كان يعجن الخبز مع زوجته ويحضران الأكل للمجاهدين الحقيقيين،كان مثل المرأة تماما، واليوم ينصب نفسه وصيا على الثورة"[15].

نستنتج من خلال هذا الملفوظ السردي أن السارجان وبعد فشل برنامجيه الرئيسي والملحق، لا يجد إلا الانتقام من مصطفى عمروش محاولا تشويه سمعته، وتلطيخ تاريخه الثوري، والتقليل من قيمته بأسلوب ساخر (حارسا للمغاور، يعجن الخبز، كان مثل المرأة تماما".

وعلى الرغم مما سبق يبدو أن السارجان لم يشف غليله بعد، بل يواصل في إلحاق الضرر بمن ساهم في تحطيم حلمه، وإفشال برنامجه فعمد إلى تشويه صورة الشهيدة حورية (زوجة مصطفى عمروش، التي التحقت بصفوف الثورة، وعملت كممرضة). ربما تكون قد فقدت عذريتها معه قبل صعوده إلى الجبال ... وهل كانت زوجته وحده فقط..."[16].

يعبر هذا المقطع السردي عن تحول مهم في مسار الأحداث، ويحدث خلخلة واضحة في السيرورة الحدثية.

حيث يصبح ها الكلام القبيح محفزا قويا للتخطيط لبرنامج آخر، حيث يقرر مصطفى عمروش الدخول إلى اتصال بموضوع القيمة (المتمثل في قتل السارجان)، فالدافع المحفز متوفر، ومعرفة الفعل حاضرة عنده باعتباره رجل سلاح وثورة، والقدرة والرغبة في الفعل حاصلتان بشكل بديهي دون اللجوء إلى برامج سردية ملحقة، بالنظر إلى الحالة النفسية السيئة التي اعترته بعدما سمع ذلك الكلام ونلمس ذلك من خلال هذا الملفوظ السردي : "في هذه اللحظة نزل الصمت على القاعة الواسعة كالصاعقة، وجمّد الزبائن في أماكنهم لا يحركون ساكنا، ولا ينطقون حرفا، ثم بعد التحقق من هوية القادم نحو المقهى، انتفض الجميع في

صخب فوضوي بإزاحة الطاولات وإطاحة الكراسي على البلاط قاصدين جميعا الباب الخارجي قبل وصول الزائر الخطير، كان مصطفى عمروش يتقدم في الشارع الرئيسي بخطى ثابتة وقسمات صارمة معولة على فعل رهيب، مصوبا بصره الحاقد على ماسورة البندقية اللامعة."[17]

المتمعن في هذا المقطع السردي يجد نفسه أمام تنقلات سردية مهمة وكأننا بصدد مشاهدة صورة سينمائية حية تنم عن الجرأة والجدّية في الحدث حيث نجد:

1) نزل الصمت على القاعة الواسعة كالصاعقة
2) جمد الزبائن في أماكنهم لا يحركون ساكنا
3) انتفض الجميع في صخب فوضوي (بعد التأكد من شخصية مصطفى).
4) قاصدين جميعا الباب الخارجي

نلاحظ جيدا أن هذه الوصلات السردية تدل على حدة الموقف وهيبته، وتمهد لوقوع حدث مهم وجليل.

وهنا يكتسب الفاعل كل الشروط التي تجعل منه منجزا حقيقيا، حيث ينتقل من ملفوظ حالة إلى ملفوظ فعل بامتياز، وخاصة بعدما نسبت إليه صفات (الزائر الخطير، خطى ثابتة، قسمات صارمة معوّلة، البصر الحاقد) التي تصعّد وتيرة الحدث، وتستفز الفعل وتحفزه إلى أن يصل إلى مرحلة الإنجاز والدخول في وصلة مع موضوع القيمة (المتمثل في قتل السارجان) وتحقيق البرنامج السردي، "تحركت سبابة اليد اليمنى لمصطفى ضاغطة على الزناد دون شفقة، فانطلقت الرصاصة الأولى مدوية، واستقرت في صدر السارجان الذي أطلق صيحة حادة، فأضاف له المنتقم رصاصة ثانية في الرقبة، حيث انفجر الدم المتوقف فوق البلاط...جثة تتخبط وسط الدم، أصدرت شخيرا بطيئا ثم فجأة همدت وانقطعت عن الحركة".[18]

ويمكننا توضيح ما سبق بالترسيمة السردية التالية :

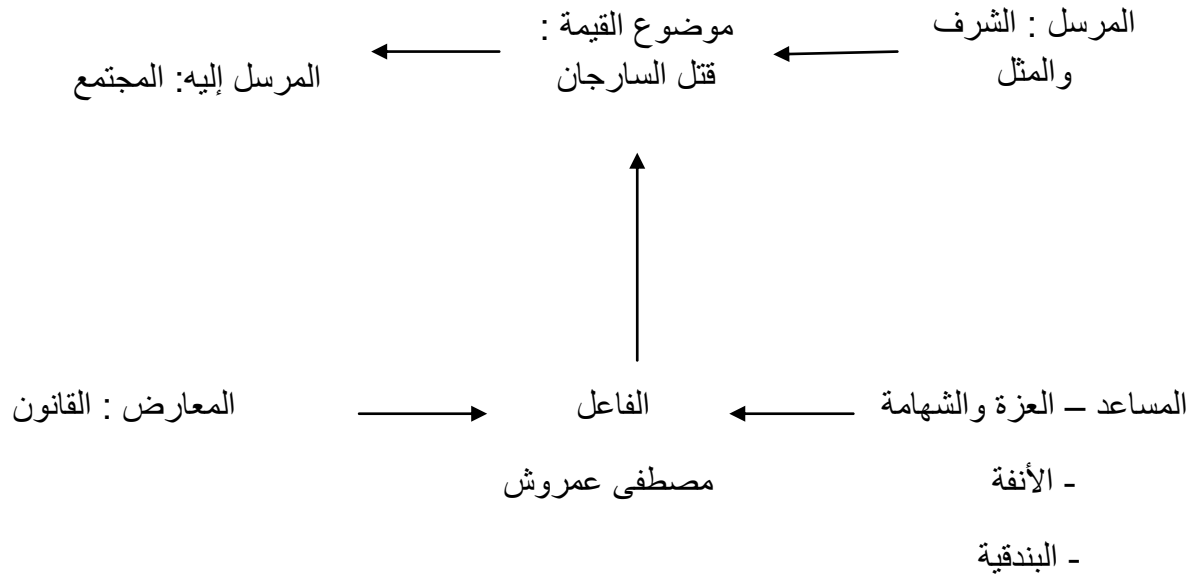

ومن خلال هذه الدارسة المتواضعة للبنية العاملية في رواية البطاقة السحرية نستنتج موقف الروائي من خونة الثورة، والرواية تأكيد على أن مقاومة الطفيليين الوصوليين والعملاء الذين يحاولون تشويه التاريخ وتحريفه لصالحهم لم تنته بعد، فالثورة لا تزال مستمرة وقائمة إلى زمن ما بعد الاستقلال لشرذمة المستعمرين الجدد المستفيدين من عدة امتيازات رغم خيانتهم قبل الاستقلال، وأن الحرب التحريرية الكبرى لم تكن سوى مشروع لم يكتمل إنجازه، وأنّ الطرف المهمش بعد الاستقلال هو المؤهل لاستكمال المشروع المستقبلي، وهذا ما نستشفه من خلال مقدمة الرواية المعنونة بـ "مفتتح الحلم"، حيث يؤكد الروائي "لسنوات طويلة ونحن نركض اتجاه أبواب مشعة حالمين باليوم الذي ستنفتح فيه الأنوار والورود، خالدين فيها أبد الدّهر، ويوم انفتحت، تحوّل الأفق المشّع إلى عاصفة هوجاء جرفتنا بوحشية جنونية، أعادتنا إلى حيث كنّا رفقة الوباء والجهل والظلمة الحالكة"[19].

فالرواية مشروع سردي واضح يسعى فيه الروائي إلى تحقيق برنامجه السردي المتمثل في محاربة الخونة.
ويمكن تلخيص ما سبق من خلال الترسيمة السردية التالية:

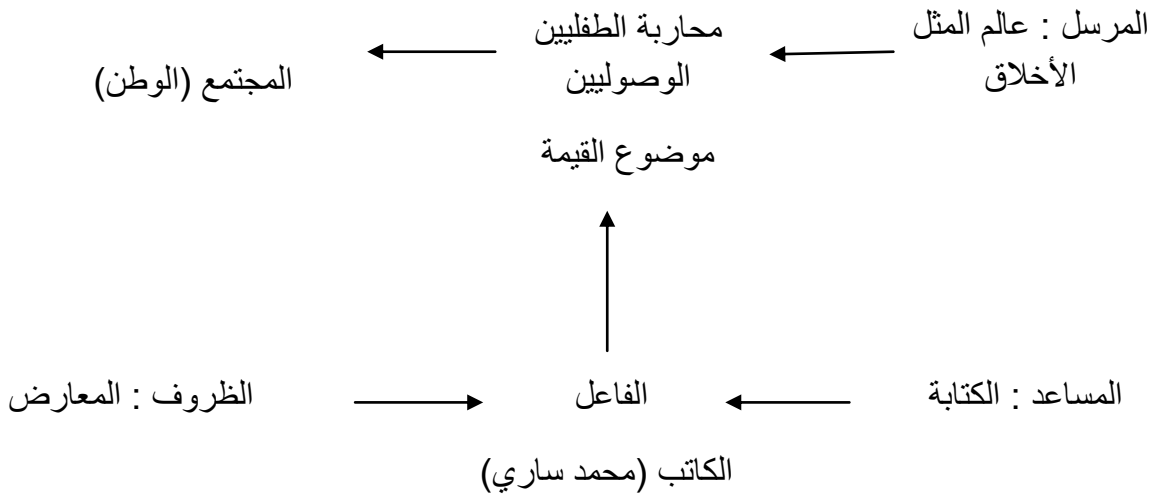

الهوامش:

1. **Barthes (Roland) : poétique du récit, Editions du Seuil, 1977, P :33**
2. **Hamon (Phillipe) : pour un statut sémiologique du personnage, in poétique du récit, Editions, du seuil, Paris 1977, P :15.**
3. بحراوي (حسن): بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمن، الشخصية)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ص:20.
4. **Hamon (Phillipe) : pour statut sémiologique du personnage, P :98**
5. لحمداني (حميد) : بنية النص السردي، من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، ط3 –2000، ص: 52.
6. روابنية (طاهر): سرديات الخطاب الروائي المغاربي الجديد، مقاربة نصائية، نظرية تطبيقية، في آليات المحكي الروائي. رسالة دكتوراه دولة، قسم اللغة العربية وآدابها 2000/1999، ص: 33.
7. ساري (محمد) : البطاقة السحرية (رواية)، منشورات التبيين الجاحظية سلسلة الإبداع الأدبي، الجزائر: 2000.
8. القاضي (محمد) في البنية القصصية ودلالتها، تطبيق نظريات علم القص على رواية الزلزال، الحياة الثقافية (تونس) ع41، سنة 1985، ص: 18.
9. المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
10. الرواية، ص: 06
11. الرواية، ص: 09
12. الرواية، ص: 14
13. الرواية، ص: 14
14. الرواية، ص: 12
15. الرواية، ص: 19
16. الرواية، ص: 131
17. الرواية، ص: 134
18. الرواية، ص: 135.
19. الرواية، ص: 03.